مطرانية بني مزار
والبهنسا

نبذات روحية هادفة
(٦٣)

الحنين إلى اللّه

الأب أنتوني م. كونيارس
المعرب: ي. م

مراجعة وتقديم
نيافة الأنبا أثناسيوس
أسقف بني مزار والبهنسا

نيافة الحبر الجليل الأنبا أثناسيوس
أسقف بني مزار والبهنسا

حنين النفس إلى الوطن السماوي

تحدَّث كبير المهندسين وهو في الشَّاحنة عن طريقة إحضاره الحيوانات المتوحِّشة إلى حديقة الحيوان في بلده في ألمانيا، وكان بين هذه الحيوانات: حيتان، تماسيح أمريكيَّة، ثعابين سامَّة فقال: "الأمر سهل جدًّا، فإن كانت هناك أفعى كبيرة أُحضرها من الهند، فإنَّني أُطعمها بأرنبين أو ثلاثة، عندئذ تلتهم الأفعى الأرانب للوقت، وبعدئذ تلفُّ نفسها وتذهب في نوم عميق، إلى أن أُسافر بها وأُحضرها إلى حديقة الحيوان في بلدي، وهكذا مع باقي الحيوانات المتوحِّشة".

من الملاحظ جيِّدًا أنَّ الحيوان بعدما ينال كفايته من الطعام، فإنَّ قلقه يتوقَّف ويشعر بالسلام، أمَّا بخصوص الإنسان، فليس الموضوع بهذه السهولة، فبعد أن نُشبِع احتياجاتنا الجسديَّة الرئيسيَّة، وننال ما يكفينا لنأكل، فإنَّه لا يزال يوجد شيءٌ آخَر يظل في حالة جوع، ويظل يزعجنا ويضايقنا، لأنَّ الإنسان لم يُخلَق للخبز فقط، ولكن لأشياء أسمى وأعلى.

الرئيس الغني: (لو١٨: ١٨-٢٧).

الرئيس الغني مثال لذلك، فنحن نجده يسأل يسوع: «**أيُّها المعلّم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبديَّة؟**» (لو١٨: ١٨). ونحن نتساءل، لماذا سأل هذا الرئيس مثل هذا السؤال؟ أَمَا كان يمتلك قدرًا وفيرًا من المال؟ وموائد كثيرة للأكل؟ إذن فلماذا يسأل هذا الرئيس عن الحياة الأبديَّة إلاَّ لأنَّه كان غير قانع، ومُحبَطًا ممَّا يملكه؟

«**أيُّها المعلّم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبديَّة؟**» مِن وراء هذا السؤال نستشفُّ أنَّه توجد رغبة شديدة واشتياق عميق لمن هو وحده قادر أن يُشبِع الإنسان تمامًا: **هو الله**. البعض يُسمُّونه حنين الرُّوح إلى الوطن السماوي أو إلى الله، الأمر الذي وضعه الله بنفسه داخلنا من أجل أن يقودنا إليه.

غريزة العودة إلى الوطن:

وضع الله غريزة عجيبة في الحيوانات، ألا وهي غريزة الحنين إلى الوطن، فمثلاً طائر السمَّان يسافر في موسم الشتاء إلى المناطق الدافئة هربًا من الشتاء القارص، ولكن، ويا للعجب، فما إن يأتي موسم الربيع إلاَّ ونجد الطائر وقد

عاد إلى وطنه الأوَّل وإلى نفس الشجرة التي كـــان عليهـــا ليُعيد بناء عشِّه. كذلك نجد أن سمك الـــسلمون يغـــادر كولومبيا ويسافر آلاف الأميال إلى الأماكن الثابتة السريَّة التي يعرفها في الباسفيك ليتغذَّى هناك، وعنـــدما تقتـــرب دورة الحياة من أن تنتهي، يعود السلمون إلى نفس البحـــر الذي أتى منه وهو يكافح في طريقه عبر المنحدرات والمياه الضَّحلة الصَّخريَّة، ويرفض أن يتوقَّـــف إلى أن يـــصل إلى نفس المنعطف الذي تربَّى فيه في النـــهر. ولكـــن، هـــل الحيوانات فقط هي التي وضع الله فيها غريزة الحـــنين إلى الوطن؟

إنَّنا نظن أن الله قد وضع غريزة عميقة وثابتة ودائمة لا يمكن أن تُمحى أو تزول في أعماق قلب الإنسان، ألا وهي غريزة: "الحنين إلى الله وإلى الوطن الـــسماوي". وإن لم يكن الأمر هكذا، فبأي طريقة يمكننا أن نُفسِّر عودة ابنـــة جوزيف ستالين، أو ابن مـــادلين مـــوري بقـــوَّة ودفـــع مغناطيسي قوي نحو الله، وهما قد تربَّيا في بيوت ملحـــدة تمامًا؟

الحنين إلى السماء:

وضع الله في الإنسان غريزة الحنين إلى السماء، وكلمة الحنين أي نوستالجيا NOSTALAGIA تأتي من الكلمتين اليونانيَّتين: "نوستوس nostos" ومعناها: "العودة إلى الوطن"، والثانية: "ألجوس algos" ومعناها: "ألم". والمعنى المتكامل للكلمة هو: "أنين داخلي لا يُشفى بأي طريق، إلاَّ بالعودة إلى الوطن". إنَّه وجع أو أنين مُتواصل خفيف؛ الجميع يُحسُّونه، ولكنَّ قليلين هم الذين يفهمون سببه. إنَّه ألم لا يمكن لأي شيء على الأرض أن يَشفي منه، أو يُهدِّئ من وجعه سوى الله. يقول أحدهم:

"إنَّه شوقٌ وأنينٌ لا يموتان نحو الله، الذي هو وطننا الحقيقي".

شعر المُرنِّم بهذا الحنين والأنين الداخلي لنفسه تجاه الله فقال: «**كما يشتاق الإيَّل (الغزال) إلى مجاري المياه، هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله، عطشت نفسي إلى الله، إلى الإله الحي، متى أجيء وأتراءى قدَّام الله**» (مز٤٢: ١و٢).

أحس المغبوط أوغسطينوس بهذا الشعور فعبَّر عنه بقوله:

"لقد خلقتنا يا رب لك، ولن تستريح قلوبنا إلى أن تجد راحتها فيك".

ويتنهَّد القدِّيس بولس الرسول فيقول: «**نثق ونُسرُّ بالأولى أن نتغرَّب عن الجسد ونستوطن عند الرب**» (٢كو٥: ٨). لاحظ من فضلك هذه الكلمات: «**نستوطن عند الرب**». هل أدركتَ أنَّ الله هو وطننا الحقيقي؟

إن هذا الحنين إلى الوطن الذي يتحرَّك في قلوبنا هو ثمين وغالي القيمة، وأيضًا موهبة إلهيَّة، وهو مُذكِّرٌ دائمًا لنا أنَّ أكثر الأماكن ثباتًا لنا على الأرض ومُؤمَّنة ليست هي إلاَّ خيمة، ونحن: «**غرباء ونزلاء**» أسفل على الأرض، ونحن في طريقنا ورحلتنا في البريَّة إلى وطننا الدائم السَّامي العالي السماوي.

يكتب مار إسحق السرياني فيقول:

"اِعطش إلى المسيح، لكي ما يُسكِرك بحبِّه الإلهي".

ماذا يُعوزني؟

سأل الرئيسُ الغنيُّ السيِّدَ المسيحَ: "ماذا يعوزني؟" يجيب الأب ليف جليه Father Lev Gillet على هذا السؤال كما لو كان هو جواب الله، فيقول:

"إن كنتَ مُعوَزًا إليَّ، فأنتَ تعتاز كل شيء، وإن وجدتني فقد وجدتَ كل شيء".

يقول الشاعر ويليام وتسون William Watson في قصيدته:

"في هذا المنزل، بقبَّته ونجومه السماويَّة،

وبأرضيَّته المنبسطة وبجواهرها وبحارها،

لا أشعر أنَّني في منزلي،

كما لن أشعر بسعادة أبدًا".

الإجابة طبعًا معروفة: لا ولن نكون في راحة، فنحن مخلوقون لنشعر بالراحة في الله فقط. يكتب أحدهم فيقول:

"يا رب، أنت من صلاحك أعطيتني ذاتك،

وأنت تكفيني.

إن طلبتُ شيئًا أقل، فأنا أعرف أنَّني سأظل دائمًا محتاجًا،

فيك وحدك يكون لي كل شيء".

الاشتياق الرئيسي:

لا يوجد اشتياق إلى الوطن يكون دائمًا ومُستمرًّا مثل هذا الذي لملكوت السموات، الوطن السماوي. قال أحدهم:

"يوجد اشتياق واحد، ألا وهو الاشتياق إلى الوطن".

معنى الحياة والهدف منها لكل واحد منَّا هو الاستجابة لهذه النَّزعة الفطريَّة التي تعمل داخلنا، ألا وهي الانطلاق نحو الله، الوطن الحقيقي. يكتُب مايستر إيكرت Meister Eckert ويقول:

"الله موجود في الوطن، ونحن نحيا في كورة بعيدة".

نحن كلُّنا كالابن الضال أخطأنا وعصينا وتمرَّدنا، وحِدْنا وتُهنا بعيدًا عن وطننا الحقيقي في الله، ولم نفقد طريقنا فقط؛ بل وفقدنا عنواننا وهويَّتنا أيضًا، والله في محبَّته لنا أرسل ابنه الوحيد إلى العالم ليُرجِعنا ثانية إلى وطننا. علينا أن نعي جيِّدًا أن الابن الضال لم يجد نفسه فقط إلاَّ عندما عاد إلى بيته.

ما الذي يجعل فينا هذا الاشتياق؟

أساسًا هو أنَّنا مخلوقون على صورة الله، وهذه الصُّورة تنجذب دائمًا إلى النموذج الأصلي لها، فنحن خُلقنا لله، وعندما خلقنا الله على صورته، فقد وهبنا **عقلاً** مُميِّزًا لكي نعرفه به. وبالإضافة إلى العقل، فقد أعطانا **قلبًا** يرغب فيه، ويشتاق إليه، يتوق إله ويجري نحوه، وليصير مريضًا حبًّا إليه. يقول مكسيموس المعترف:

"وضع الله في القلب الإنساني الاشتياق إليه".

وبالإضافة إلى العقل الذي يعرف به الإنسان الله، والقلب الذي به يشتاق إليه، فقد أعطانا الله شيئًا إضافيًّا كجزء من صورته فينا وهو **الإرادة الحرَّة**، لكي ما نختار بحريَّتنا أن نحبَّه وأن نأتي إليه.

لذلك فنحن نجد أن هذا الحنين القوي لله والمغروس داخلنا، مُرتبط تمامًا بحقيقة أنَّنا خُلقنا على صورة الله، لنعيش مع الله ولله وليس أقل من هذا يُشبِعنا. كما رسم الله للسمك أن يعيش في الماء، والطيور أن تطير في الهواء، هذا قصد الله

للإنسان أن يحيا معه. يوجد شـــيء لا يهـــدأ في الإنـــسان، اشتياق وحنين يدفعاننا دفعًا نحو الله. عبَّر تومـــاس مرتـــون Thomas Merton عن هذا بقوله:

"لا تـــزال النفس البشريَّة مخلوقة على صـــورة الله، وبصرف النظر عن مدى ابتعادها عنـــه في الأمـــاكن المزيَّفة والمُصطَنَعَة، فالنفس لا يمكن أن تظل مُزيَّفَـــة تمامًا، بحيث يتوقَّف نصيبها الحقيقي عـــن أن يُلهِبـــها باحتياج عودة الإنسان إلى الله، لتصير مـــرَّة أُخـــرى حقيقيَّة".

يشعر أغلب الناس بحقيقة الـــشَّوق الـــداخلي إلى الله، ولكنَّهم لا يفهمونه، ولا يدركون ما هو كنهه أو حقيقته، ولكنَّهم يشعرون أنَّهم يحتاجون أوقاتًا يخلـــدون فيهـــا إلى الهدوء، أوقاتًا يحتاجون فيها إلى الوحدة والانفراد، أوقاتًـــا يتأمَّلون فيها أعمال خالق النجوم والسنين، ويتـــأمَّلون في الموت، والحياة بعد القبر. هم يجوعون ويعطشون، ولكـــنَّهم لا يعرفون: إلى ماذا؟ إنَّهم يشبهون تلك الفتاة التي كانت تقـــول لأبيها: "إنَّني محتاجة إلى شيء، ولكنَّني لا أعلم ماذا هو؟"

أنفسنا غير قانعين ونريد المزيد، هذا الذي بعد أن نحصل عليه نظل نشعر بالفراغ والاستياء، ونظل ندور حول أنفسنا بلا نهاية، ونحاول أن نشغل أنفسنا ونغمرها في أنشطة مختلفة، وأحداث لا تنتهي من مباريات أو سينما أو تلفاز، ومن بعد أن تنتهي البرامج، وتتوقّف المَشاهد، إذ بالسخط والحزن يعودان بشكل أنّه لا معنى للحياة، مع إحساس بالخوف والرُّعب والسأم والضَّجر. يقول جرتود شتاين Gertrude Stein عن ذلك:

"وعندما تصل إلى مرامك، تكتشف أنّه لا يوجد شيءٌ هناك!"

ما معنى عدم الرضا، والتبرُّم، والضجر الحادث؟ أليس سببه هو أنّنا لسنا في وطننا الحقيقي مع الله؟ وقد سمحنا لأنفسنا أن تزدحم حياتنا بأمور هذا العالم؟ نحن نحتاج أن نعود إلى وطننا الحقيقي.

قال شخصٌ ما لصديقه:

"أنا مُتضجِّر ويائس تمامًا من حياتي".

"كان هناك الكثير من بين أصدقائي الذين حصلوا على مراكز مرموقة وبلغوا حدًّا كبيرًا من الغنى، وأقلُّهم مَن كان له حسابٌ كبيرٌ في البنوك، ولكن لم يكن لهم شيء يكفيهم أبدًا، لا صُورهم على الصفحات الأولى في الجرائد، ولا الممتلكات الجديدة، ولا الزوجات الجدد، ولكنَّهم وقعوا في أشراك الأطباء النفسيِّين واليوجا".

كان لهؤلاء الناس كل شيء، ومع ذلك أحسُّوا بالفراغ الداخلي. أليس هذا هو جزء من الاشتياق الداخلي داخل النفس النازعة نحو سيِّدها؟ عبَّر باسكال Paschal عن هذا جيِّدًا عندما قال:

"يوجد فراغ داخل قلب كل إنسان على شكل الله، ولا يمكن لشيء أن يملأه، سوى الله وحده الخالق، والذي أعلن ذاته في شخص يسوع المسيح".

ترك الله مكانًا في قلب الإنسان لا يمكن لآخَر أن يملأه، وهذا ممَّا حدا بالمرنِّم أن يشدو: «**يا الله إلهي أنت. إليكَ أُبكِّر. عطشت إليك نفسي. يشتاق إليك جسدي في أرض ناشفة ويابسة**»

فأجابه الصديق:

"مع أطيب التهاني!"

فقال له الآخَر:

"ماذا تقصُد بردِّك هذا؟ أما تسمعني؟ إنَّني غير سعيد بالطريقة التي تجري بها الأمور".

فأجابه الصديق ثانية:

"كم أنت محظوظ، الله يتكلَّم معك من خلال عدم رضائك، فهذا جزء خفي من وراء شوقك الدفين إلى الله، الله يخبئ في مخازنه أشياء أعظم جدًّا إن انتبهتَ وعُدتَ مرَّة أُخرى إلى وطنك".

الحنين إلى الوطن والفراغ الداخلي:

بالإضافة إلى العُزلة وعدم الرضا، يُعبِّر الشَّوق إلى الله عن نفسه بالشُّعور بالفراغ الداخلي. قال فولتون أورسلر Fulton Oursler عن بعض أصدقائه:

الحنين إلى الوطن والعُزلة:

يُعبِّر بعض الناس عن حنينهم إلى الله والوطن السماوي من خلال ما يُسمِّيه البعض: بشعور الانعزال، أو "الإحساس بالوجود في عُزلَة existential loneliness"، فقد يكون البعض مع أعز أصدقائهم أو زوجاتهم أو أولادهم، وفجأة، وفي ألطف وأبهج الأحاديث والحوارات، إذ بإحساس مخيف من الوحشة والعُزلة والانفراد ينتاب الإنسان. ما هذا؟ إنَّه ليس إلاَّ تعبيرًا عن حنين النفس إلى الله. الإنسان خُلِق ليحيا لله، وبدون الله يظل وحيدًا حتى ولو كان وسط حشد من الناس، ووسط أعز الأصدقاء.

الاستياء والسَّخط علامتان

على الحنين الداخلي إلى الله:

وطريقة أُخرى تُعبِّر بها النفس عن اشتياقها إلى الله هي عدم الرِّضا مع السُّخط والتذمُّر على الحياة. نجد أنفسنا غير سعداء ولا نعلم ما هو السبب. يكون لدينا كل شيء ومع ذلك نجد

(مز٦٣: ١). "طوبى للمُشتاقين إلى الوطن، لأنَّهم سيأتون إلى أوطانهم".

الحمام المقصوص الأجنحة والمُشتاق إلى وطنه:

قصَّة:

أُشاركك هذه القصَّة اللطيفة التي حكاها روبرت جرافين Robert Graffin:

"سمعتُ عن شخص باع قطيعًا من الحمام المنـــزلي إلى عالِم من علماء الطيور يعيش في مدينة تبعد ٢٥ ميلاً. ولأجـــل أن يوقف الرجل الحمام عن عودته إلى مكانه القديم ويبقيه في عشِّه وبرجه الجديد، فإنَّه قصَّ أجنحته. بعد أسبوعين كان المالِـــك الأوَّل يطلُّ من نافذة منـــزله وإذ به يرى قطيع الحمام يمـــشي بتعب وعناء على الطريق عائدًا إلى مقرِّه الأوَّل. لمَّـــا كانـــت الأجنحة قد قُطِعَت، فقد عادت الطيور سائرة ٢٥ ميلاً علـــى أقدام تنـــزف دمًا وهي مُجرَّحة وقد ملأتها القروح، إلى وطنها الأصلي الذي كانت تشتاق إليه بغريزتها".

أليس وطننا الحقيقي هو في قلب الله المُحب؟!

عُد إلى وطنك!

إن كانت الحياة لك هي مثل سباق ولكن ليس إلى الأبديَّة، بل يشبه بالأكثر سباق فئران ينتهي بالضجر والعُزلة والفراغ والموت، أو مثل الرئيس الغني وتمتلك كل شيء، ولكنَّك تشعر بالاحتياج إلى شيء أساسي: «**أيُّها المعلِّم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبديَّة؟**» وإن كنت تضع الله على مسافة منك، فوق رف أدوية يُستخدم عند الطوارئ والإسعاف العاجل، ربَّما تتعجَّب لماذا لا تجد شيئًا في الحياة يجلب لك السعادة التي تنشدها، عليك أن تصغي جيِّدًا إلى صوت يسوع وهو يدعوك في مُستهل هذا الصوم الكبير: "تعالَ إلى منزلك! عُد إلى وطنك، السماء التي تنتمي إليها". عُد إلى بيت الله الذي بالإيمان والمعموديَّة والتناول صرتَ عضوًا مع أهل بيت الله في الكنيسة المُقدَّسة. عُد إلى الوطن حيث السلام الذي يفوق كل عقل. عُد إلى بيت الله السمائي حيث الحُب الأوَّل والفرح الدائم. عُد إليه، هذا الذي وحده يستطيع أن يُشبع أعمق أنَّاتك وتنهُّداتك واشتياقات نفسك، والذي يُكلِّلها بالحياة الأبديَّة. تعالَ إلى وطنك!

شكرًا لك، يا رب،

على غريزة الحنين إلى الوطن التي غرستها في قلـــبي لتقودني إلى مكاني عندك.

دعني ألاَّ أبحث عن أي مسكن أو أي مُستقر لي على الأرض سواك، لأنَّه ليس غيرك!

ومع أنَّني كثيرًا ما أضلُّ بسبب طيشي ونـــزواتي عن الطريق المُستقيم في دورات ونـــزوات خاطئة وغـــير هادفة،

ولكن احفظ رغبتي الأكيدة في العودة إليـــك أنـــتَ الطريق، لتتغيَّر حياتي،

مُستسلمًا أكثر وأكثر إلى رغبتك الكاملة في أن أعود إلى وطني مثل الابن الضال،

لأجد في حضنك كل ما تشتاق إليه نفسي وتتـــوق دائمًا. آمين.